ابولون والشعر الحى

بقلم الدكتور على العنانى

— ٣ —

عظمة أبولون عند اليونان

١ — بطولته : نعود ثانية الى (فويبوس — أبولون) متحدثين عن بطولته وشجاعته وأعماله الجليلة فى هذه الناحية وما له فيها من أثر عظيم مما جعله فى صف الآلهة الاقوياء . فقد اقتحم الصعاب العظمى وخرج منها ظافراً وقابل كوارث فادحة مردية تغلب عليها بجرأة وحزم وان كان قد اهتزّ لها عرشه وزجت به الى محنة قاسية خرج منها وعلى هامته اكليل الفوز والظفر وتحت قدميه مستقر ثابت ارتكز عليه عرش ألوهيته المنيع ، فأقيمت له الأعياد وشيدت الهياكل ونصبت التماثيل .

تروي الأساطير الأغريقية القديمة أن تيمس (Themis) آلهة العدل تعهدت (أبولون) بالغذاء منذ اللحظة الاولى التى برز فيها الى عالم الوجود فكانت تطعمه الأمبروزيا[١] (Ambrosia) طعام الآلهة وتسقيه النيكتار (Nektar)[٢] شرابهم فنما فجأة وشدن فى لحظات قليلة وبلغ اشده واستكمل قواه بعد بضع ساعات من مولده . فخفت اليه آلهات كثيرات لخدمته ، فعرفهن بنفسه ملخصاً ذلك فى أنه آله الرماية ورب المزاهر وملهم الشعر ومنزل الوحى ، وبعد ساعات قليلة من ميلاده أخذ يضرب فى الفضاء والعراء باحثاً عن بقعة هادئة صالحة يُنزل فيها وحيه بحيث لا تكون نائية عن الناس ولا يحول دون هدوئها ضجيج ولا جلبة . وبعد معاينة

(١) عسل النحل الشهى . (٢) رحيق الازهار الطهور .

أمكنة كثيرة فى البلاد اليونانية وقع اختياره على الوادى الصخرى المعروف باسم ديلفى (Delphi) أو بيتو (Pytho) .

فى هذا الوادى كان هيكل وحى تيمس الآلهة العدل التى تعهدت (أبولون) بالتغذية كما سبق قائماً وآهلا بقاصديه . ولحبها القلبى لابولون تنازلت عن هيكل وحيها اليه عن رغبة وطيب خاطر، فشكر اليها (أبولون) تلك المنحة العظيمة . ولما دنا من الهيكل وجده قد أحاط به أفعوان جسيم رهيب يمنع الداخل فيه فصوب الى مقاتله سهاماً حادة قاتلة ، ورغم ان جميعها قد أصابه فانها لم تصمه ، فهجم الاله (أبولون) الشاب القوى وتناوله بيديه القاتلتين فحطمه ومزقه شرّ ممزق ، وبذلك استولى الآله الشعر والشدو والغيب على هيكل وحيه بشدة بطشه وحدّة بأسه . وبانتصاره على هذا الافعوان الرهيب (بيتون) سمى أبولون (بيتيوس) كما اشرنا الى ذلك فى مقالنا السابق .

نال (أبولون) قوة الايحاء والاخبار بالغيب وما هو فى طى الخفاء وفى ظلام المستقبل من أبيه (زُويس) أو جوبتر الاله الاكبر ، وإذنْ فوحى ديلفى يعبر عن رغبات هذا الاله الاكبر وعن قضائه وقدره .

بقى هيكل ديلفى ووحى النصب ذى الارجل الثلاث متنزل غيب (أبولون) محصناً بقوة هذا الاله لا تمتد اليه يد عابث ولا بطن إله ، الا انه ذات مرة وفد عليه (هيراكلس) بن (زُويس) وأخو (أبولون) ، وكان هيراكلس قوياً عاتياً . ولما سأل العرافة وحى أخيه (أبولون) وأجابته بما لم يرد جذبها من مكانها بقوة وألقى بها خارج الهيكل وقذف بالنصب فى صحنه ! فوثب (أبولون) للدفاع عن حرمه والذود عن حماه وقبل أن يبدأ النضال بين الأخوين الالهين أدرك أبوهما (زويس) الحالة وتدارك الامر وصالح بين ولديه وأودع قلبيهما محبة خالصة وميلاً صادقاً يتبادلانهما فبقيا بذلك اخوين مؤتلفين على الدوام .

أظهر (أبولون) فى حروب ابيه (زويس) ضد التيتان والجيجانت شجاعة الآلهة الاقوياء بمهارته فى الرماية وسرعته فى العدو، فكان عضداً لوالده وساعداً قوياً له وقد أحبه والده لذلك ، الا أنه أغضبه مرة بأن أصاب بسهامه بعض السكاليب فعاقبه بأن صعق ولده اسكولاب (Aeskulab) الآله الطب ، فتألب (أبولون) على والده وأشعل غضبه بهذا التألب عليه فأبعده أبوه عن الاولمب مقر الآلهة العظام .

فى هذه المحنة القاسية التى وقع فيها (أپولون) بابعاده عن الأولمب ذهب الى خدمة أدميتوس (Admetos) ملك بريه فى تساليا فرعى له الماشية كانسان ثم رعى أيضاً أنعام لأوميؤن (Laomeon) فى طروادة بآسيا الصغرى. ولما لم يدفع له لأوميؤن المذكور أجره رماه بطاعون قضى على سكان طروادة والبلاد المجاورة لها.

لم يستكن (أپولون) ولم يستسلم لهذه المحنة بل هرع الى پوزيدون أو نبتون الـه الماء وتآمر معه على اسقاط عرش أبيه، الا أن هذه المؤامرة لم تنجح وعاقبهما زويس بأن يعملا فى بناء أسوار طروادة.

ووقعت ذات يوم مداجاة بين (أپولون) وپان (Pan) بأن فضل الاخير صوت الناى على نغمات المزاهر فاحتكما الى ميداس (Midas) ملك ليديا فحكم بصحة رأى (پان) وتفضيله على رأى (أپولون)، فحنق هذا الاله عليه وعاقبه بأن علق على اذنيه أذنىْ حمار! وتجاسر مارزياس (Marozas) على أن يفتخر على أپولون بأنه يجيد النفخ فى الناى اكثر منه فقتله شر قتلة!

ومن حوادث (أپولون) المشهورة أن نيوبه (Niobe) زوج أمفيون Amphion أحد اولاد (زويس) وهى أم عدد كبير من الاولاد والبنات رفعت قيمتها ودرجتها من حيث الامومة على قيمة ودرجة (ليتو) أم (أپولون) فغضب لذلك وقتل اولادها وأرتيمس أخته قتلت بناتها!

٢ — ذرية أپولون: تقص السير الأسطورية كثيراً من أخبار (أپولون) وحوادثه من جهة اتصاله بعدد وفير من الآلهات ومن بنات الانسان الحسان وأنه اعقب منهن ذرية كثيرة. فمثلا قد اعقب من كورونس (Koronis) أسكولاب الطبيب وجد الاطباء، ومن اكرويزا (Kreusa) أيون (Yon) جد الأيوثيين أو اليونان، ومن كاليوبه (Kaliopé) الـهة الشعر الحماسى أورفويس (Orpheus) الـه الطرب والغناء والانشاد. وكان اذا غنى أو أنشد تأثرت الكائنات كلها بصوته العذب الرخيم وتبعته الوحوش والانعام والاسماك والطيور، وسارت خلفه الجبال والآكام والصياصى والآطام!

٣ — اعياده: اقام الاغريق لأپولون أعياداً ومواسم كثيرة لاتساع دوائر نفوذه وتعدد نواحى عمله. وكانت هذه الاعياد محل اقبال كبير عليها وسرور عام بها

يشمل جميع طبقات الشعب فى كل الاقاليم الاغريقية وملحقاتها فى ايطاليا الجنوبية وسيرانيكا بشمال افريقيا وشواطىء آسيا الصغرى وجزر البحر الابيض .

ومن اشهر هذه الاعياد تلك الاعياد الميكانتية التى كان يحتفل بها فى بلوبونيز المعروفة الآن باسم مورا . ومراكز هذه الاعياد فى سيكيون ومسينا وأميكيتا واسبرطة . وكانت تبتدىء بمؤثرات محزنة كنشيد الاشعار المليئة بحوادث الهمّ والاكتئاب ، ويتبع ذلك على الاثر الابتهاج والفرح بالشاد اشعار السرور والمرح . وكل هذا رمز للطبيعة عند دويها وذبولها فى الشتاء واعشاب الارض ونضارتها فى الربيع .

وتحتفل اسبرطة أيضاً بالاعياد الكارنيئية ، وتشترك فيها سيرانيكا وورودس وسيسيليا وجنوب ايطاليا .

وفى أثينا واقريطش أو كريد وفى فوكيس حيث يوجد وحى ديلفى تقام الاعياد الديلفينية . وفى وقت هذة الاعياد كان يحتفل بالعيد الديلى فى جزيرة ديلوس مسقط رأس (ابولون) ، وأنت خبير بقيمة هذه الاعياد ومدى تأثيرها فى الادب اليونانى شعراً ونثراً وخطابة وفصاحة ، الى غير ذلك مما هو مدون فى أدب الهلينيين .

٤ — المعابد : أشهر معابد (أبولون) معبد ديلفى فى فوكيس . وفى داخل هيكل هذا المعبد هوة عميقة نافذة فى الصخر ينبعث منها على الدوام هواء رقيق بارد شذىّ العرف شديده يحدث فى الرأس دواراً تخرج الانسان عن حالته الطبيعية . وفوق هذه الهوة وعلى فتحتها يقوم نصب ذو ثلاث أرجل وهو مصنوع من الذهب الابريز ، وعلى هذا النصب تجلس العرافة فيتيا (Phythia) اذا دعيت للنطق بوحى (أبولون) . وبفعل الهواء الذى تقدم وصفه تخرج فيتيا عن الطور الطبيعى الى حالة الغيبوبة ، وفى أثناء ذلك تنطق بألفاظ متقطعة لا اتصال فيها ولا قصد يبدو منها فيأخذها الكهنة وينظمونها شعراً أو يرتبونها سجعاً ثم يقدمونها للمستنبىء فتذاع وتشاع . وهى بمرونة أسلوبها وغموض معانيها تتحمل الضدين وتشير الى النقيضين ، حتى اذا وقع أحد المعنيين فهو ما أرادت سواء أفهم الناس منها ما وقع أواستنبطوا العكس ، لأن الخطأ ليس فيها وانما جاء فى الاستنباط وهى صادقة على الدوام !

لنذكر هنا مثلاً واحداً لذلك : لما أغار الفرس على اليونان كان اليونان فى جميع حركاتهم الحربية يستنبئون وحى (أبولون) ، فحدثهم الوحى ذات مرة بأن نصرتهم فى

« الحصون الخشبية » ففهم أهل اسبرطة من ذلك أنهم يتركون مساكنهم ويتحصنون فى اكواخ من الخشب وفعلا نفّذوا ذلك ، وأهل أتينا عمدوا الى تفسير ذلك بالسفن الحربية فهمّوا ببنائها والاكثار منها فكانت لهم حمى وكانت سبباً فى ردّ الفرس والانتصار عليهم، أما أهل اسبرطة فقد اصابهم من سكنى الاكواخ الخشبية ما أصابهم من الحر والبرد فساءت حالهم ، واذن فالاسطورة صادقة بما فسرها به الأتينيون وغلط فيه الاسبرطيون !

ولأبولون فى رومة معبدٌ ضخمٌ فخمٌ وآخر على جبل بلاتين ، وله أيضاً تماثيل أثرية من العهد القديم . وأجمل تمثال له من صناعة النحاتين المحدثين تمثال بلفيدير القائم فى حجرة بالفاتيكان تعرف باسم بلفيدير فسمى التمثال باسمها .

الشعر الحى

ما هـــو ؟

بقلم أحمد الشايب

مدرس النقد الادبى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

— ١ —

إنى لاغالب نفسى وأدافعها كلما هممت بالكتابة الى هذه المجلة الناهضة (أبولو) أما أنا فأود الخلوص تواً الى موضوعى أو موضوع أبولو ، وأما نفسى فتأبى الا الوقوف عند صاحب هذه المجلة لتعرف له جهوده المتنوعة النشيطة فى نواحى الحياة المتنوعة النشيطة والخامدة كذلك . ومهما أساير نفسى فى هذا الشعور فأنا مضطر ان أختطف الكلام اختطافاً وان اجتزىء منه بالاقل والا طال القول وتشعبت نواحيه. ألم ترَ الى الدكتور أبى شادى يملأ الوادى بشعره ثم ينشىء مجلة «عالم النحل» بالجلترا ثم « مملكة النحل » بمصر ويؤسس غيرها من المنشآت الاقتصادية وفى طليعتها مجلتى «الدجاج» و« الصناعات الزراعية » ومكتب « النشر الزراعى » . وأخيراً يتحفنا

برابطة الادب الجديد ثم بجمعية أبولو ثم بهذه الصحيفة ؟ ! هذه ناحية يغبط عليها حقاً ، وناحية أخرى يُرحَم لها ويستحق التشجيع بسببها : تلك الجهود المتتابعة ، فرأس يذوب تفكيراً ، وشباب يُهدر انتاجاً ، ومال ينفق تباعاً ، حينما هو يحتمل صابراً باسماً . . . . صدقني أني طالما غاضبته اشفاقاً عليه ، وحاولت صرفه بعض الشيء الى نفسه وآله وماله ولكن في غير جدوى ! فالدكتور أبو شادي له فلسفة صوفية أو

احمد الشايب

تكاد ، يقول لي : انها قوة في نفسي إن لم توجَّه الى هذه النواحي فاين تتجه وتتنفس ؟ أتُنفق في الشر ؟ ! وما لي ولفلسفته وقد أعيتني معه الحيل ؟! فلاتركه وفلسفته ، ولأمضِ لشأني ! ولكن أي شأن هذا ؟ ثق أني لن أفلت منه او من جماعة أبولو هؤلاء ، وهاءنذا مضطر أن اتحدث معهم الى القراء في ناحية من نواحي البحث الشعري ، في الشعر الحي ـ ما هو ؟

— ٢ —

ليس يعنيني هنا أن أقف عند حد الشعر وتعريفه ، فانه على الرغم من كثرة ما قيل في ذلك ومن عناية العلماء بهذا النحو من البحث لست أرى من النهج المنطقي خيراً كثيراً للادب عامة أو للشعر خاصة . ان الذي يعنيني هنا انما هي الخواص الفنية التي تكسب الشعر حياة وقوة وجمالا ؟ يعنيني هنا عناصر الشعر ، وصلتها بالطبيعة الانسانية ، وأسباب حياة الشعر وخلوده .

أول شيء لفت أنظار الباحثين من عهد الفلاسفة الاقدمين اليونانيين الى اليوم

انما هو لغة الشعر الموسيقية ، فتلك الاوزان والمقاطع وهذا التنغم والتنويع وهذه البحور والقوافى ، كل أولئك امتازت به لغة الشعر ، واستأثرت بمعظمه دون النثر ، وأقول بمعظمه لان النثر ذو أسلوب موسيقى كذلك وان كانت موسيقاه دون موسيقى الشعر ، فهذه لغة القلب وتلك لغة العقل وللعقل تنغيم فى التفكير المنطقى وفى تنسيق المعانى ، وسَوْقِها للاقناع وقوة الحجة والبرهان .

هذه اللغة الموسيقية ليست فى الحقيقة وحدة مستقلة فى الشعر توجد بنفسها وتعد عنصراً مستقلا ، له مصدره وحياته الخاصة ، يخلق ويضاف الى الشعر فيكسبه الروعة والجمال ، كلا وانما هذه اللغة الموسيقية ظاهرة طبيعية لعنصر آخر يعد جوهرياً فى باب الشعر ، بل هو ألزم العناصر وأولاها بالاعتبار ، ذلك العنصر هو العاطفة (Emotion) . فمهما تكن درجة هذه اللغة فى الناحية الموسيقية ، ومهما يكن نوعها فلا تَعْدو ان تكون نفحة العاطفة وصداها الذى ينم عنها ويصدح على مثالها صريحاً صادقاً ، والا فما بال الناس يقولون عن الشعر إنه لغة العاطفة ؟ وأى شىء فى الشعر أروع من تلك العاطفة الصادقة التى تظفر بلسان يلائمها ، أو تجد لغة هى ترجيعُها الحقُّ ، وقيثارتها السليمة ؟ ! ماذا تُحس حين تسمع أو تتلو قول البحترى : —

لم يكن يومُنا طويلاً بنعما ن ، ولكن كان البكاء طويلا

أو قوله : —

وقفةً بالعقيق أطرحُ ثِقْلاً من دموعى بوقفةٍ فى العقيق

ألستَ تشعر بتلك العاطفة الشجية الآسفة الوفية التى تختلج فى نفس الشاعر ، وتتردد بين جوانحه حتى بدت فى هذه اللغة الموسيقية الشجية المترنِّحة ، والتى هى الغالب الطبعى لتلك العاطفة النفسية ؟ وهذا قول المتنبى : —

مُلِثَّ القطر ، أعطِشها ربوعاً والاّ فاسقها السمَّ النقيعَا
أسائلها عن المتبرِّيها فلا تدرى ، ولا تدرى دموعَا

تُحسُّ فيه عاطفة ساخطة حانقة ملأت نفس الشاعر حتى ثارت وانفجرت بهذا الاسلوب القوى العنيف .

— ٣ —

هذه العاطفة تختلف حزناً وفرحاً ، رضاء وسخطاً ، روعةً وزرايةً ، حماسة واستكانة الى غير ذلك من نوازع النفس وبواعثها ، ولا بد لكل نوع من لغة

خاصة ذات موسيقى تلائمه من حيث الدرجة والنوع ، أو أنّ تلك العاطفة لا تستطيع الحركة والحرية الا اذا ظفرت بلغتها التى خلقت لها والتى هى صداها الطبيعى ، وصوتها الجميل ، فموسيقى الحماسة غير موسيقى الحزن ، وهذه تخالف موسيقى الروعة ، وهكذا تجد للنفس فى كل حال حركة خاصة تمتاز من سواها بعدد الانفاس وأطوالها ، ونتيجة ذلك طبعاً أن تكون اللغة التى تؤدى كل عاطفة غير نظيرتها ، ومعنى هذا اختلاف التفاعيل والبحور الشعرية باختلاف فنون القول . تجد ذلك فى الشعر العربى كما تجده واضحاً جداً فى الشعر الفرنجى . وعلى هذا الاساس نستطيع أن نفهم ماورد فى كتب الادب العربى من غلبة بعض البحور فى فنون خاصة ، فبحر يجود فيه الرثاء ، وآخر للرقص والغناء ، وثالث للشكوى ، وكذا الشأن فى الاوزان الاجنبية ، يعرف ذلك من درس العروض المقارن .

كيف تتوافر للشعر هذه العاطفة التى تثمر تلك اللغة الموسيقية ؟

لا يمكن توافرها للشعر إلا إذا كانت حيّة فى نفس الشاعر حياة قوية عميقة ، فنفس الشاعر هى المنبع الاول لقوة العاطفة الشعرية ، وهى بذلك المنبع الأول لتلك اللغة الموسيقية ، ونحن ملزمون أن نبحث فى نفس الشاعر عن خواص هذه اللغة فى وضوحها ، وقوتها ، وجمالها ، فى نوع موسيقاها ودرجتها ، فالاسلوب صورة لنفس الكاتب ، وهى اجدر أن توصف بالجمال أو القوة أو الوضوح مما يعدّه الناس صفة للفظ مرة وللمعنى مرة أخرى ، ولكنه فى الاصل أوصاف لنفس المنشىء شاعراً أو ناثراً . ولست أدرى ما يقول الناس إذا حاولت التعمق قليلاً فى بحث هذه الموسيقى ، ما نشأتها الاولى ، أهى العاطفة وكفى ، أم نستطيع أن نخطو خطوة أخرى وراء هذه العاطفة نفسها ، فنسأل : لم كانت العاطفة نفسها ذات حركة ترجيعيّة غير عادية فيها هذا التنغيم والترديد ، فاستلزمت لذلك لغة خاصة غير مألوفة هى هذه اللغة التى حدثناك عنها ؟ هل لنا أن نقول قولا عضوياً مادياً بأن العاطفة هى كذلك صورة لنبض القلب ، أو ترديد النفس عند الفزع أو السرور ، وهذا النبض الذى يصحب العاطفة أو ينشأ عنها يختلف باختلاف ما يرد على النفس من مؤثرات فهو مرة سريع وأخرى بطىء ، ومرة قوى وأخرى ضعيف ، وهكذا تجد هذه الظاهرة المادية وفق العواطف المعنوية ؟ فلم لا يكون هناك ارتباط بين هذه اللغة المادية وتلك اللغة الصوتية ، فكلتاهما نبض وتقسيم وتفاعيل ؟ ولم لا يكون هذا الثالوث وحدة متصلة الاجزاء ؟

ستقول : والغناء ، أليس هو أصل الوزن العروضى فى كل اللغات ؟ ولكن الغناء نفسه او ترديد الصوت ما مصدره ؟ أهو شى غير ما قلنا من عاطفة نفسية ظهرت صوتاً صرفاً أو لغة منغمة موسيقية ؟!

ومالنا ولهذا التورط فى شىء قد لايجدى ، وكل ما يهمنى أمر واحد هو أن لغة الشعر مشتقة من نفس الشاعر أو هى صورتها الطبيعية ، فما أحرانا أن نترك نفوسنا تتكلم بطبيعتها دون أن نحبسها فى التكلف والاغراب أو فى محاولة التعمية والابهام .

— ٤ —

ليس الشعر صنعة من الصناعات تتناولها الأيدى وتعملها الآلات ، ولكنه فن روحى يصدر عن النفس الشاعرة ، وحياة هذا الشعر تنبع من حياة هذه النفس وحياة هذه النفس معناها تلك العاطفة الصادقة والشعور الحاد الذى يستطيع استلهام الكون والانسانية ويوقظ فى النفس لوناً عاطفياً صحيحا ثابتاً ، غير وقتى زائل .

كثيراً ما يُعجَبُ نُقَّادُ الأدب العربى برثاء أبى تمام محمدَ بن حُميد الطوسى :—

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدحْ الأمرُ فليس لعينٍ لم يفضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتَ الآمالُ بعدَ محمدٍ وأصبحَ مشغولا عن السفر السَّفْرُ

ويُراعون بهذا التهويل والتفخيم ، ولكن خبرنى أتشعر الآن بروح صادقة لهذا التهويل تبعث فى نفسك التياعاً وأحزاناً ؟ أكبر الظن عندى أن قيمة هذه الأبيات مرتبطة بذلك الشخص المرثوّ ، وبصلة هذا الشخص بالشاعر ، وبزمان الميت ومكانه . وأما صلة هذا الرثاء بالدنيا عامة، وبالعاطفة الانسانية كلها ، فلا تكاد تحسها . ولكن أنظر إلى قصيدة المعرى فى الرثاء :—

غيرُ مُجدٍ فى مِلَّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيهُ صوت النعِىِّ إذا قيـ سَ بصوت البشير فى كل نادِ
أبكتْ تلكم الحمامةُ أم غنَّتْ على فرع غصنها الميادِ ... الخ

تجد المعرى يشعرك بحزن خالد ، ويعرض عليك طبيعة الحياة والموت ، ويمثل لك مصارع الانسانية ومالها ، فهو بأن يرثى الحياة كلها أجدر من أن يرثى فقيهاً . استعرضْ هذه القصيدة وانظر هل ترى سوى سجل خالد عام لعواطف الناس جميعاً نحو الموت والحياة فى كل زمان ومكان ؟

للنقاد كلام كثير عن العاطفة الشعرية وخواصها وكلها تتركز فى صدقها وخلودها ولن تصدق أو تخلد إلا إذا كانت عميقة شاملة .

— ٥ —

ولكن ما سبيل إثارة العاطفة فى نفس القارىء حتى يحرص على الشعر ويجد فيه متعته دائماً ؟ الخيال ، ولكنه الخيال الصادق ، ذلك الذى ينقل العاطفة فى نوعها ودرجتها من نفس الشاعر الى نفس القارىء ، ولن يكون ذلك بالتحدث عن الكوارث وآثارها والتهويل الفارغ بشأنها ، ولكن بتصوير منبع العاطفة ونقل ملابساتها ، ثم عرضها فى أسلوب جميل حتى يرى هذا القارىء فى الشعر ما رأى الشاعرُ نفسه فى الطبيعة ، وهنا يتساويان أو يتقاربان .

وللخيال قيمة كبرى فى فنون الأدب الاخرى ، فى القصص والروايات لا يعنينى الآن تفصيله فلا تركه .

ولكن قبل أن أتركه أحيلك أو أوجه نظرك إلى سينية البحترى أو رثائه المتوكل لتلمس أثر الخيال ، وتحس آثاره فى حياة الشعر وروعته :—

عَحَلٌ على القاطُولِ أخلقَ دارُهْ وعادت صروفُ الدهر جيشاً تغاورُهْ
كأن الصَّبا توفى نذوراً اذا انبرت تُراوحه أذيالُها وتباكرُهْ
ورُبَّ زمانٍ ناعم ثَمَّ عهدُه تَرِقُّ حواشيه ، ويُورِقُ ناضِرُهْ
تغيَّر حسن الجعفريِّ وأنسهُ وقُوِّضَ بادى الجعفرى وحاضِرُهْ
تَحَمَّلَ عنهُ ساكنوه فجُأةً فعادت سواءً دورُه ومقابرُهْ
ولم أنسَ وَحْشَ القصر إذ ريع سربُه وإذ ذُعِرَت أطلاؤه وجآذِرُهْ
وإذ صيحَ فيه بالرحيل فَهُتِّكتْ على عجَلٍ أستارُه وستائرُهْ

ألستَ ترى ما رأى البحترى عقبَ مصرع المتوكل ؟ ألم تثِرْ فى نفسك تلك العواطف التى ملكتْ عليه نفسه حتى قال هذا الشعر ؟ ثم قل لى هل سلك سبيل التهويل ، أو ذكر لك هنا الموت والسَّفْر ؟ إن الشاعر إذا ترك هذا التصوير الذى يثير العاطفة ويبعثها ثم اكتفى بذكر آلام نفسه وأشجانه فربما لا أصدقه ولا أتأثر لآثاره لأنى لا أرى داعيها والحاملَ عليها ، وإنما أسمعُ دعاوى بلا دليل فلست ملزماً أن أبكى لبُكائه ، أوأفرح لفرحه ما دمتُ لا أرى داعى الفرح والبكاء

— ٦ —

اللغة الموسيقية ، والعاطفة الخالدة ، والخيال الصادق ، هى أعصاب الشعر وعضلاته ، وهى أخيراً روحه ، ولكن ينقصه الهيكل العظمى ، فذلك هو الفكره أو الحقيقة أو العنصر العقلى كما يسميه بعض النقاد . ولست اريد مجرد الحقيقة أو المسألة المسلم بها فقط ، وإنما اريد العقيدة ، أريد تلك الفكرة التى يدركها الشاعر ، ويتشبث بها ويتهالك عليها مقتنعاً حريصاً غيوراً كأنها رسالته ، بل هى فى الحق رسالته الروحية يلبسها تلك العناصر الاخرى التى تعرضها على الجمهور سائغة كأنها فن خالص ، وهى فى الواقع ذائبة فى الفن غارقة فى سحره وجماله ، أشبه بالموسيقى القائمة على الاناشيد والمقطوعات ، فهى شعر ذائب فى الموسيقى أو موسيقى شعرية .

أتصدّقُ أن المعرى فى رثائه يريد أن يقول لنا لا فرق بين بكاء الحمامة أو غنائها أو يريد الحديث عن القبور وكثرتها ، أو يود أن تطير فى الجو ؟ الحق أن المعرى يعرض علينا مهزلة الحياة وهوانها ، ويرى فى الفناء الحقّ الخالد ، ويبتسم لهذا الحق ، ويراه أليق بالقبول فى غير فزع . هذه هى الحقيقة التى أبرزها لنا وعرضها علينا فى صور واشكال من اصوات الحمام ، وكثرة المقابر ، وتسوية الموت بين الناس . كذلك الحال فى رثاء المتوكل فقد اراد البحترى أن يخبرّنا بإقفار منازله وذهاب الخير بوفاته ومذلة اصابت آله ، وخراب تلك المنازل التى كانت تضج بالحياة فعادت تضج بالصمت والممات .

— ٧ —

ولكنى للآن لم أقل لك ما هو الشعر الحى ، واكتفيت للآن بتحليل الشعر الى عناصره وبيان قيمتها ليس غير . ولكن أسألك : ما عتاد هذا كله ؟ ما مصدر الفكرة والعاطفة والخيال والعبارة ؟ نفس الشاعر ، لا أريد أن أقول نفسه فذلك تعبير غير دقيق ، وإنما أريد (شخصيته) ـ تلك الشخصية هى مصدر هذا الشعر ، وهى باعث الحياة والخلود . أليست هذه الشخصية هى التى تكسو الحقائق ثوباً من العاطفة والخيال فتكسبها إمتاعاً وروعة تحمل الناس على قراءة الشعر مرة ومرة ، وتجعلهم يعودون اليه التماساً لغذائهم النفسى ؟ الحقيقة خالدة ولكنها ليست ممتعة إذ ليس فيها جديد لاتحادها فى كل العقول ، ولكن الشىء الجديد إنما يكون من وحى العاطفة وطريقة تصويرها أى من ناحية الشخصية .

وربما كانت هذه الشخصية فى حاجة الى تفصيل عريض لبيان عناصرها وصلاتها بالآثار الفنية ، وأنواعها المختلفة ، ولكنى اكتفى هنا بهذه الاشارة ، وأقول إن هذه الشخصية يجب كذلك أن ترتكز على مزاج جميل حاد وعلى ثقافة أدبية عميقة شاملة تتسع لكل زمان ومكان ، وتتعالى على التاريخ والبيئات ، وتتمثل الانسانية كلها لا جنساً خاصاً ، والدهر جمعه لا عصراً بعينه ، وتكون عبارة عن الطبيعة المشتركة بين الناس جميعاً حتى تأتلف مع كل قارىء . وفى هذه الحال فقط تستطيع هذه الشخصية أن تكون مصدر شعر عالمى هو شعر الحياة والخلود .

وبعد ، فهل لنا أن نرجو من شعراء (أبولو) أن يسجلوا أنفسهم فى ثبت الخالدين ؟